لم أجد بدًا من الذهاب والإتيان بأحدهم، فكان الأديب الدكتور جمال نور الدين، وبفضل الله كان هو المقصود.

وفي عشاء علىٰ شرفِ مولانا ببيت وزير الدولة السوداني للثقافة (على مجوك) سألوه إن كان يريد حلوىٰ معينة أم يأكل طبق (أم على)، ويبدو أنه تذكر خادمته الوفية (أم أمل) فأجابهم بسرعة: لأ عايز أم أمل!

فضحك الجميع حتىٰ الثمالة...

رحمك الله مولاي.

في ظل شجرتين..

«وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي»

قليلا ما يصدق القول بأن وراء كل رجل عظيم امرأة، أو أن وراء كل قصة نجاح امرأة، إلا أن ذلك يصدق تمامًا علىٰ هذه المرأة التي ارتبطت بمولانا عدة عقود، زوجةً ومربيةً مثقفةَ الفكر.

إنها الزوجة الأولىٰ له وأم أولاده، السيدة سعاد الواقدي عليها رحمة الله..

هي من نِعَم الله التي أنعمها عليه، صغرتْهُ بعدة سنوات في كلية دار العلوم، وكافحت معه بدءًا من السفر إلىٰ الكويت، وحتىٰ العودة من السعودية بعد نحو عشرين عامًا من الإقامة هناك.

امتازت بقدر وافر من رجاحة العقل والرزانة والاعتزاز بالنفس، فاعتمد عليها كثيرًا في إنجاز بعض أعماله، ومراجعة مقالاته، وإبداء الرأي فيها؛ نظرًا لتكوينها اللغوي والشرعي، بل كان يلجأ إليها في بعض المسائل العلمية التي لا تسعفه بها ذاكرته، باعتبارها نتَاج دار العلوم... تلك الدار العريقة التي حملت لواء الثقافة والفكر الإسلامي منذ نشأتها الأولىٰ.

ولعل أهم ما انمازت به عفة اللسان، وقلة الخُلطة والكلام، والتنظيم إلىٰ أقصىٰ درجة ممكنة.

كانت سيدة مجاملة ودودة، ويوم زارتنا في بيتنا لأول مرة، رأيتُها جمَّة التواضع والأدب وغاية في النُّبل.. نزلتْ من السيارة وفي يدها بَدْلَةٌ جديدة من صوف المحلة الكبرىٰ، ولم تنس وهي تدفعها إليّ أن تقول- بشيء من الأسىٰ- علىٰ مسمع من مولانا: إنها من اختيار الدكتور.

لم أفهم المراد من تلك العبارة إلا بعد انصرافهم، فقد كانت البدلة موضة قديمة كما يقولون، وإن كانت صوفًا وقشيبة غالية، وهو ما يعني أن الدكتور انتقاها علىٰ غير رغبة منها، فهو يختار لي ما يختاره لنفسه، وهو محلاوي صميم محب لصناعة بلده، وكثيرًا ما يشتري الهدايا صوفًا محلاويًا يتباهىٰ به داخل مصر وخارجها..

لكن أمرًا قيل لي بعد ذلك فأثار دهشتي!

أراد مولانا منذ سنوات الزواج بثانية، ووجد في نفسه رغبة لذلك؛ فسارع إلىٰ زوجته في ذلك الوقت ليستأذنها عارضًا عليها تلبية كل مطالبها وتأمينها علىٰ النحو الذي تريدُه..

لكنها أَبَتْ ذلك.

كان هذا أمرًا مدهشًا لي! فكيف للرجل أن يتنازل عن هيبته وعظمته ليستأذن زوجته في أمر محسوم، فالمرأة في مجتمعنا المصري لا يمكن لها بحال من الأحوال أن توافق علىٰ مثل هذه الزيجة ولو كانت كسيحة عمياء لا تقدر علىٰ القيام بأمورها وأمور بيتها، فضلا عن حاجات زوجها!

سألتُ مولانا باستنكار: ولماذا استأذنْتَها؟! ثم لماذا نَزَلْتَ علىٰ رأيها؟!

قال: هي شريكة حياتي التي أسهمت في بنائي حتىٰ وصلتُ إلىٰ ما وصلتُ إليه الآن، ولقد رضيتْ بالزواج مني في وقت رفض خالي أن يزوجني ابنته بسببٍ من فقري وحاجتي، وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي.

إلىٰ هذه الدرجة كان الرجل مقدرًا لزوجته محبًا لها، ولعل هذا مما يحسب له كما يُحسب لها، فإجلاله لها باستئذانها أمر يستحق الثناء، كما إن نزوله علىٰ رأيها يبين كيف كانت عنده أثيرة.

***

كان إيمان السيدة سعاد يقينيًا برسالة زوجها وبقَدْرِه، ومن ثم كانت تحاول جهدها أن تفرِّغه لمهامه العلمية علىٰ أن تتولىٰ أمور بيتها بنفسها، فقامت علىٰ تربية أولادها أفضل ما يكون، فنشأوا منذ نعومة أظفارهم علىٰ حبِّ اللغة العربية والقرآن الكريم.

إن الواحد منهم يكاد يتكلم العربية دون أن يلحن، فأما الدكتور أحمد فحصل علىٰ الدكتوراه في الاقتصاد من الولايات المتحدة الأمريكية بعد عدة سنوات من الاغتراب وهو الأكثر شبهًا بوالده خلقًا وخُلُقًا.

أما أنس فحصل علىٰ الدكتوراه في الزراعة من مصر بعد أن رفض دخول كلية الطبِّ، رغم حصوله علىٰ مجموع يؤهله لها بجدارة، وهو بطبعه متمرد ذو شخصية مستقلة يعطي نفسه حرية التفكير ولو كان ذلك خارج سرب أبيه، ولو أراد أن يكون أديبًا أو مفكرًا لكان له شأنٌ آخر.

ثم السيدة سمية التي تزوجت مبكرًا من الدكتور أحمد أبو الفضل نجل شيخه عبد السلام أبو الفضل قبل أن تتم دراستها الجامعية في كلية البنات، ولها مؤلفات دعوية وأدبية متميزة.

***

في ليلة من ليالي حقبة التسعينيات، جمع مولانا زوجته وأولاده، وطلب من كل واحد منهم أن يستحضر في نفسه أعظم ذنب ارتكبه في حياته

تعجَّبت الأم.. وتعجَّب الأولاد!

طالت لحظات الصمت

قال مولانا: هذه فرصة لتكفير الذنوب، اليوم بإمكان كل منكم أن يكفر عن أعظم ذنوبه وأكبرها..

تهامس الأولاد.. وسألت الزوجة عن الكيفية

لم يطل انتظارهم كثيرًا.. طلب مولانا تبرعًا للبوسنة والهرسك..

سارع الجميع إلىٰ التبرع.. فأغراه ذلك أن يطبق الفكرة علىٰ نطاق أوسع.

وجد حارس العقار، طلب منه تبرعًا، أعطاه راغمًا مبلغًا زهيدًا.

أخذ يتوسع شيئًا فشيئًا حتىٰ شمل رجال أعمال كبارًا في مصر وخارجها..

هكذا عاش الرجل مؤمنا بقضيته.

***

ظلت- رحمها الله- تصارع مرضًا يَفُتُّ في عظامها عدة سنواتٍ حتىٰ لبَّت نداء ربها في مستفتح أغسطس 2006م

أذكر ذلك اليوم الذي حمل في طياته دلائل إخلاص الرجل لزوجته حية وميتةً..

في جنازتها وقف الرجل خطيبًا، فأثنىٰ علىٰ محاسن أخلاقها ودينها، وقال عبارة أمَّن عليها الحاضرون، فقد قال بأسىً: «كانت- رحمها الله- أكرمَ منِّي علىٰ أهلي»

في هذه العبارة اختزل الرجل حياة زوجته الوفية التي عاشت معه علىٰ السرَّاء والضرَّاء، وكانت حقيقة وحريَّةً بهذا الوصف، علامة في الكرم، تصل الليل بالنهار، طيبة النفس قريرة العين لإكرام ضيوف زوجها الذين يفدون من كل فجٍّ، وكثيرًا ما كان يتندَّر مولانا قائلًا: امرأتي من أكرم النساء وأسخاهن رغم مُنوفِيَّتها، فقد كانت- رحمها الله- من إحدىٰ قرىٰ محافظة المنوفية.

انتهينا من مراسم الدفن والعزاء بقريته سندسيس، وعدنا في المساء بعد يوم شاقٍّ إلىٰ بيته بمدينة المحلة الكبرىٰ، وكان ثالثنا طالبٌ روسيٌّ- لستُ أذكره- يقود السيارة..

لحظة من أصعب اللحظات.. ترجَّل من سيارته ليدخل بيته، فإذا هو خالٍ من زوجته بعد عِشرةٍ امتدت عدةَ عقود..

لم تكن قدماه تحملانه بالقدر الكافي..

لأول مرة أراه يغالب دموعه فتغلبه..

ولأول مرة أراه غير مهتم بشَعْره الأسود الكثيف المشرب بقليل من الشيب..

لقد انهدَّ ركن من حياته طالما أوي إليه..

طلب مني مصاحبته إلىٰ أعلىٰ لجلب بعض متاعٍ له..

اعتذرتُ.. فأنا لا أتمالك نفسي في مثل هذه المواقف.

ألحَّ عليَّ، فرفضتُ متوسِّلا.. لم يجد بُدًا من اصطحاب مُرافقه الروسي..

جلست في السيارة وقتًا لا أدرىٰ قدره، كل ما أذكره أنني أسندتُ رأسي إلىٰ الكرسي، أجتر من القديم ذكريات صارت في ذمة التاريخ.. وهالني أن باغتتني الذاكرة بمواقف جليلة لا تنسىٰ مع هذه السيدة صاحبة الفضل علىٰ تلاميذه وأصدقائه، بل وأهله أيضًا.

رحمها الله..

رحمها الله من زوجة صابرة مثابرة، وأمٍّ حنونة وفيَّة.

***

عُدْنا إلىٰ شقةِ العجوزة.. وفيها تغيَّر كلُ شيء.. يكفي أنه أصبح بلا زوجة..

أصبحنا نقتاتُ من المطاعم..

تناثرت قوائم المطاعم لتملأ أرجاء المنزل..

سرعان ما أحسَّ مولانا بالوحدة القاتلة التي حاول أن يملأها بالكتابة والتأليف، كنتُ أشعرُ به وأُشفق عليه..

لم يكن مناصٌ من مفاتحته في أمر زواجه..

- أستاذنا.. هناك أمرٌ لا أدري هل من حقي التحدث فيه أم لا؟!

- خير يا سيدي؟!

- باختصار يا أستاذنا.. لا يُمكنك أن تعيش فردًا في الحياة! أولاد حضرتك ربنا يبارك فيهم.. ولكنهم معذورون.. (سمية) في بيتها، و(أنس) في عمله وكلاهما في المحلة، و(أحمد) في أمريكا يشقىٰ بك وبنفسه وبأولاده هناك.. وأنت غالب إقامتك بالقاهرة.

- يعني يا أخي أروح أتجوز واحدة تبهدلني في السنِّ ده؟! أنا مش عايز أكرر تجربة والدي- الله يرحمه- الذي أخطأ بزواجه بعد أمي.

- وليه يا أستاذنا ما تشوفش واحدة كويسة، وتتحرىٰ الأمر عسىٰ الله أن يهديك إلىٰ ما تأنس به نفسك؟!

واصل كلامه بعد ضحكته المعتادة ونظرته المميزة من أعلىٰ نظارته الطبية وقال:

- والله يا أخي إنت بتضيق عليَّ الخناق.. علىٰ العموم احتمال تسمع ما يسرك قريبًا.

- طيب يا مسهل

- يا أخي الله يهديك سايبين الشغل وقاعدين نتكلم، قوم يا مولانا شوف اللي وراك.

أيقنت حينها أن مولانا قد حدد وجهته وشرع في الزواج، غير أنه لم

يخصني وقتها بالتفاصيل.. لقد علمتُها بعد ذلك منه.

***

لم تمر أيامٌ حتىٰ فوجئت به يتصلُ بي من مكان غير معلوم.. كان يطلبُ عملا لا أذكره.. ربما كان شراء كتاب.. شكَّ الراوي.

سألته: أين أنت يا مولانا؟!

- موجود يا أخي

- في القاهرة؟

- لأ.. خارج القاهرة

- في المحلة ولا إسكندرية؟

- اسمع .. أنا في المنيا.. وتزوجت.

- ما شاء الله، ما شاء الله.. ألف مبروك يا مولانا، يعني في شهر العسل حضرتك من غير ما تقولي!

- هو اللي يعرفك يقضي شهر عسل..هههههه؟!

- ماشي يا مولانا بس مين يا ترىٰ؟!

- يا أخي الله يهديك.. بنت خالي

- آآآآآآآآه.. ما شاء الله.. الحب الأول

- تحشَّم يا أخي

- أي حشمة يا مولانا؟! أمال فين طوق الحمامة بتاع ابن حزم؟!

- علىٰ العموم مبروك.. وما تتجوزش تاني من ورايا

- والله إنت عجيب.. فعلا 100 نوري ولا دمنهوري

- وبيقولوا يا أستاذنا 100 حاوي ولا محلاوي

سعد الرجل بزيجته الجديدة السيدة نشوىٰ التي ملأت حياته بعد فراغ، كما أحسَّ الرجل بنعمة الله عليه، فلم تكن هذه الزيجة إلا المرأة التي أحبها شابًا يافعًا، غير أن فقره حال دونها، وها هو اليوم وقد أغناه الله من فضله وردَّها عليه.

أذكر أنني عندما قابلته لأول مرة بعد زواجه قلت له: وجب الشكر عليك مرارًا وتكرارًا، وما أراه من أمر زواجك– والله أعلم– هو دليل محبة من ربك، فقد أعطاك ما حُرمت منه قبل ذلك.. أحببتَ امرأة ولم تتزوجها لفقرك وحاجتك، فأغناك من فضله وزوَّجك إياها.

لم يكن زواجه بالأمر الهيِّن، فللسيدة أولاد كبار لا شك سيرفضون الفكرة، والمجتمع لا يرحم؛ فكيف تتزوج امرأة تخطَّت سنِّ المعاش ولها أحفاد..

وتدخَّل زوج أختها الدكتور محمد السعيد إدريس– المفكر والكاتب الناصري المعروف- لإقناع الأولاد (أسامة) و(داليا)، فكان له ما أراد، وقالت السيدة لأولادها: ليس من المروءة أن أترك ابن عمتي في وقت يحتاج إليَّ فيه، كما إنه صاحب فضل عليَّ!

وافق الأولاد، ونجح مولانا بعد ذلك في إذابة الفجوة بينه وبين أولادها حتىٰ صاروا يأتنسون إليه ويأنس بهم.

والحقيقة أن السيدة (نشوىٰ) طيبة القلب نقية النفس، تتلقىٰ الجميع بابتسامتها العريضة المعهودة، ولم تكن مهمتها بالهينة، فلم تلبث حتىٰ زاد المرض علىٰ الرجل، فصارت زوجة وممرضة في آنٍ

واحدٍ، ناهيك عن شئون المطبخ الذي يعمل بكامل طاقته في بعض الأحيان ما يقرب من عشرين ساعة!

كان البيت أشبه بسلسلة مطاعم كبرىٰ!، حتىٰ خدمة التوصيل للمنازل كانت متوفرة لدىٰ منزل عبد الحليم عويس!.

فقط عبد الحليم عويس..

الطائي.

رحمه الله كما أحبَّني..

«الإنسان نفخة من روح الله، وبغير الروح يصبح الإنسان مادة أو عقلا مجردًا من معانيه الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم»

مُذ رأيته لأول وهلة تسرَّب إليَّ إحساس غريب، إنه يراني بمنظار مختلف عن الآخرين، بمن فيهم أنا..

نعم، أعترفُ أنه كان يؤمِّل فيَّ مالم أؤمِّلُهُ في نفسي..

مشكلتي الحقيقية التي فطن لها الرجل أنني شخصية غير طموحة..

نعم، بالفعل.. غير طموحة.

أُقدِّم غيري علىٰ نفسي في مواضع يرىٰ البعض غير ذلك، حتىٰ عملي بالإعلام والقنوات الذي امتد سنواتٍ، قنعتُ فيه بعملي كمعد للبرامج خلف الكواليس، رافضًا كل محاولات الترقية، بل والعمل كمقدم للبرامج، اللهم إلا في العام الأخير وبضغط من الزملاء ومجلس الإدارة معًا، قبل استقالتي وترك الإعلام بقَضِّهِ وقَضِيضِهِ..

لم أرني قبل ذلك الوقت مسئولا إداريًا أشغل نفسي بحضور فلان وانصراف فلانة، وتستيف الملفات، وضبط الفواتير.. أمرٌ يضيق به صدري.

فماذا كان يريد لي مولانا؟!